الإنسان والحقيقة الدينية
الأنا من الكوجيتو إلى الشهادة

كمال البكاري*

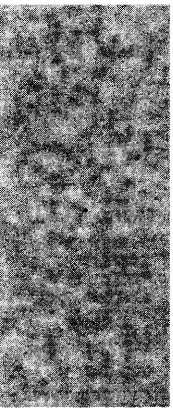

هل ثمة إمكانية لدى الدين والفلسفة لإعادة بناء المدنية المعاصرة انطلاقاً من إعادة فهم وموضعة مقولة الذات/الأنا على نحو يمكنها من استعادة الامتلاء والتحقق بوصفها غاية لا وسيلة؟ وما هو السبيل كي تستعيد الأنا/الذات مركزيتها في الكون؟ يجيب الباحث على ذلك من خلال التأمل في ضرورة التحول من الأنا الديكارتية الغائبة لحظة القول والتفكر إلى أنا الشهادة القائمة على علائقية يستحيل معها الانفكاك عن التفكير.. إذ يستحيل كونها وجوداً منعزلاً بذاته، بل هو وجود يكوِّن مسيرة وعي الأنا من خلال ربط الذات بالله.

* باحث من تونس.

منذ بداية القرن العشرين، قرن الافتتان بالكشوفات العلمية التي كانت تفوق الخيال في البعض منه. لقد انكبّ إنسان هذا القرن على تفكيك شيفرات الكائن الحيّ والكون من حوله، باستقراء الجينات... إلخ؛ وتمكّن من تحقيق نجاحات كبرى في تجريب الاستنساخ. وكانت نهايات القرن انفتاحاً على مرحلة جديدة وجدت الإنسانية نفسها أمام أسئلة كثيرة... منها ما يتعلق بالمدنية والعقل ومستقبل العلم، في ظلّ غياب إيطيقا جديدة وفلسفة ودين، من أجل إعادة ضبط استخدام العلم، والثورة التكنولوجية التي أنتجها، بما يجعله أداة لا أداة هدم (...)

هكذا يبدو العالم وهو يدشّن الألفية الثالثة، مطالباً باستعادة الفلسفة والدين لبناء المدنية وفاقاً لنظام القيم، انطلاقاً من إعادة مفهمة الذات/ الأنا، وإعادة موضعتها بتتكُّرها على نحو آخر يمكنها من استعادة الامتلاء والتحقق، بوصفها غاية لا وسيلة. والسؤال هو: كيف تستعيد هذه الأنا/ الذات/ الإنسان موقعها المركزي في الكون؟ كيف تستعيد حضورها بعد أن غابت وأُعلن موتها في العصر الحديث الذي انبنى على أرضية الكوجيتو؟

ألـ"أفكِّر": من "الأنا"... إليها:

(...) تفيد الدراسات التي تتخذ من اللغة موضوعاً للبحث، بأن اللغة التي كان يُنظر لها بوصفها أداة اخترعها الإنسان للتعبير والتواصل مع الآخرين عبر توسُّطها، لا يليق بها أن تحصر مهمتها في وظيفة ساعي البريد، إذ هي "مؤسسة اجتماعية"[1] غير قابلة لأن تكون ملكاً للإنسان كفرد(...) ذلك أن الفرد يظهر إلى الوجود وينتظم تلقائياً ضمن هذه المؤسسة التي كانت قبل كونه وباقية بعد أفوله.

(...) تعدّ اللغة مؤسسة يخضع الإنسان لنظامها وتنطوي عليه، ويكون مجرّد مُشكلية من مُشكلياتها أو حيثية من حيثياتها، خلخل المُسلمات والمُنطلقات التي كانت الذات/ الأنا في الـ"أفكِّر" تشيِّد عليها فلسفة الإنسان ورؤاه في علاقاته بذاته وبالله والوجود؛ وبدا أن هذه الذات المتمركزة هي غير جديرة بأن تكون لها المحورية، ولا يُمكنها أن تتمحور حتى حول ذاتها، إذ لا شيء - أصلاً- هو في ذاتها، وكل ما يستطيع هذا ألـ في _ ذاتها أن يكون هو ما يمكث في ألـ"برّاني"؛ ومع المناهج التي استخدمت في مجال الألسنيات والإناسة وبسيكولوجيا الأعماق (مع الفرويدية والفرويدية الجديدة)، تهافتت النظريات الكلاسيكية وما أسَّست له من مفاهيم...

لتختفي الذات بما تدّعيه من مركزية واقتدار وإرادة وحرية، فتتكشف حقيقتها؛ وحقيقة الأنا كما تبيّنها هذه الدراسات هي أنها مجرَّد قناع تختفي وراءه البنية والموروث بما فيه من أساطير[1]؛ وتتكشف الأنا في الـ"أفكِّر" بوصفها لا تفكِّر... بل يُفكَّر عنها ومن خلالها وحسب؛ فاللاوعي والحتمي يحكمانها ويظهران من خلالها على الرغم مما تدعيه من حضور يُمارس استبداداً ميتافيزيقياً.

(...) وتستند ميتافيزيقا الحضور هذه، في ألـ"أفكِّر"، إلى الأنا كحضور حاضر لذاته لا يطاله الشك ويعصى على أن تطاله يد الشيطان. إلا أن هذا الحضور الذي يتبدّى كما لو كان بسيطاً لا تعقيد ولا تركيب فيه، يحمل المفارقة[2]، وبالنظر إلى الأنا التي ترتبط في حضورها بفعلها (الذي هو التفكير) في الآن الذي تمارس فيه الفعل، ينكشف استنادها إلى الغياب لا إلى الحضور[3]. وذلك أن "الآن" كحضور هو في الوقت ذاته "الآن" كغياب، إذ إنه يستند إلى "آن" سابق وآخر، كما يستند إلى "آن" لاحق لم يتم بعد وآخر... وهكذا؛ فالحضور من ثمة هو إما حضور قد مضى، أو حضور لم يحصل بعد وما يزال طيَّ المستقبل. من هنا فإن الأنا في "الآن" هي في الحضور لا كالبسيط بل مركَّب من حضورين غائبين: حضور غاب في الماضي وآخر غائب في ثنايا المستقبل.

هكذا يتزحزح الإنسان/الذات/الأنا وتتهاوى مركزيته المُدّعية... بعد أن تبيَّن أنها موطئ خادع لقدم موغلة في الزلل، وانكشفت وهميتها وزيفها بمجرّد أن تناهشتها العلوم الإنسانية؛ وظهر أن الإنسان/ الذات لا يعدو أن يكون مجرَّد "مظهر من مظاهر اللغة"[4]، وهو بنية لغوية من جهة الوعي كما من جهة اللاوعي (لا بوصفه لا لغة بل لغة لا مفكِّرة).

هذه الأنا تكون موجودة لحظة الامتلاء، وهي امتلاء في اللحظة التي تقول فيها: "أنا أشكّ/أنا أفكِّر/أنا..."؛ أما خارج لحظة القول/ فعل التفكُّر، فإن الأنا غائبة لا حضور لها، أو على الأقل، فارغة فراغ فؤاد أم موسى كما يُقال. باختصار يُمكننا القول، أو بالأحرى لا يُمكننا، إذ إن اللغة هي التي تقول: الأنا مظهر تختفي وراءه البنية والأسطورة واللاوعي وكل ما يكشف أن ألـEgo لا يُحيل إلى شيء سوى إلى نفسه كزائف، خصوصاً بعد أن أدرك الإنسان أنه "يفكِّر حيث لا يوجد ويوجد حيث لا يفكر" كما يقول جاك لاكان.

ألـ"أشهد": من الله إلى الأنا:

إذا كانت الأنا في ألـ أفكّر هي أنا محض تتأمل ذاتها، أي أنا تفكّر بمعزل عن، منطلقة في وعيها الذاتي أو"اوتعائها" منها إليها، فإن الأنا في ألـ أشهد هي أنا تتأمل ذاتها وتفكُّرها في الخارج، في البرّاني، فيما ليس إيهاً، وهي بذلك إذ تفكّر، فإنما تفكّر مع، وليس بمعزلٍ عن. تفكّر في الإطار العلائقي... في وجود هو أصلاً علائقي. ذلك أنها ليست لتوجد بلا علاقة، ولا يمكن أن تكون وجوداً محضاً، منعزلاً يكتفي بذاته.

في ألـ «أشهد» تكون مسيرة وعي الأنا بذاتها من الله إلى الأنا. تنطلق في هذا الوعي من نقطة قصوى في اليقين لتفعل... أي لتشهد عن رويّة، عن إرادة تامة وحرية كاملة أيضاً؛ وفعل ألـ «أشهد» هو فعلها الخاص لجهة كونه فعلها الذاتي الذي تقوم به كـ «أنا»، أو ذات فردية، آمنت بالله وملائكته وكتبه ورُسله وباليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشرّه، وهو فعل عام أيضاً لجهة كونه فعلاً يقوم به كل الأفراد الذين يؤمنون الإيمان نفسه (...).

على أن الانطلاق من الله إلى الأنا هو انطلاق من المُطلق إلى النسبي؛ ذلك أن النسبي لا يتحقق بذاته بل بغيره: أي بالواسطة، لا يُحقق وجوده كنسبيّ إلا من خلال الوجود المُطلق الذي هو موجده؛ وهنا تتجلى حقيقة الدين، والدّين من الآدميين هو كلّ من آمن بأنه نسبي يشهد بأن المُطلق هو الله، وبأنه في علاقة بالله والكون، بوصفه كائناً يعي كون ذاته في الكون. وهو يعي كون ذاته هذا "حين يندمج (كـ) كائن في الموجودات، بعبارة أخرى: حين يُصبح شيئاً أكثر من ذاته، أو حين يُصبح شيئاً غير ذاته وحسب، ويتخذ موقفاً من الغير، إذ هو لا يظهر للغير فحسب، بل يظهر لذاته كذلك" [1].

إذا كان "الوعي هو وعيٌ بشيءٍ ما"[2]، ودائماً، فإن هذا الوعي بالذات لا يحصل إلا بالتوسط: بتوسط الآخر، الغير، الظواهر، العالم... أي أن الذات لا يتكوَّن لديها اوتعاء من لدنّها، بل بأن يتوسَّط الغير فتعي الأنا ذاتها مع الآخرين وفي العالم؛ وعليه فإن الأنا في عزلتها تبقى غُفلة بلا وعي وبلا معنى حتى تخرج من عزلتها، أي حتى تدخل العالم؛ وهي إذ تتخذ من أناها موضوعاً لتأملها وتفكّرها بمعزلٍ عن

العالم، فهي إنما تتلبّس بزعم لها مفاده أنها انوجاد ولذاته، بمعزلٍ عن الوجود الموجود بفعل ألـ"كن" الموجِد (...).

من الأنا إلى الإنسان:

تشارك الأنا، إذاً، الأنوات الأخرى في فعل ألـ أشهد مشاركة الجزئي في الكلي، وهي إذ تفعل، إنما تعرف نفسها بالمعية، أي تتعرَّف إليها من خلال انفتاحها على الآخرين في الإطار العلائقي: تتعرَّف إلى ذاتها فتحقق هويتها التي تتحدد بمقتضى دورها، ويكون دورها من خلال ارتباطها، في وجودها، بغيرها من الأنوات التي تستوي معها أمام موجِدها.

وفعل ألـ «أشهد» ترجمة لوعي بالارتباط، والتزام بما يترتب عنه من التزام تجاه الله والجماعة والعالم؛ على أن هذا الالتزام هو التزام تجاه الذات التي لا تحقق امتلاءها إلا في إطار هذا الالتزام، فهي تشهد... وفي الشهادة يقين وتحقق واغتناء: يقين بأنها موجودة وجوداً غائياً وليس عبثياً، وتحقق يتمّ بامتلاك القيمة التي تنتج عن الدور المنوط بعهدتها، واغتناء يزداد كلّما تقدّمت الأنا في اكتشافها لشروط قواها، بتعليق وعيها بذاتها من خلال علاقتها بالغير، التي تتموضع داخل حدود التجربة الجماعية في الكون؛ ووعي الذات - كما أسلفنا - ليس وعياً بالذات المفكِّرة على الطريقة الديكارتية، بل "وعيٌ بذات مُتفاعلة مع العالم ومندمجة في محيطها المُجتمعيّ" [1]، فاعلة فيه ومُنفعلة به(...).

انطلاقاً من الشهادة بوحدانية الله ومن امتلاكها، من ثمَّ، وعياً بذاتها، تمتلك الأنا استقلاليتها وحريتها ومن ثمة مسؤوليتها عن أفعالها وما يترتب عنها؛ فهي حرّة ما دام في إمكانها أن تختار بين الإيمان واللاإيمان: بين أن تشهد أو لا تشهد، فهذه الأنا/ الذات (الإنسان) هي مسؤولة بحكم قدرتها على التفكير والتعقُّل والتمييز، وبناءً على هذه القدرة بالذات كانت الأنا مخصوصة بالشريعة التي تقرّ لها بحرية الاختيار بين أن تؤمن أو لا تؤمن(...)

وعلى هذا النحو، إن الأنا في الـ أشهد قمينة بمركزيتها وسيادتها على الطبيعة، وهي مُستخلفة في الأرض، لذا عليها أن تكون في مستوى الأمانة التي اختارت حملها، طريقها إلى ذلك تمثل صفات الله والعمل بمقتضى هذا التمثُّل.

الهوامش:

(١) ذلك ما توصل إليه الألسنيون وعلى رأسهم "فرديناند دو سوسور" من خلال أبحاثه في علم اللغة.

(١) لا يختلف البنويون وما بعدهم حول هذه المسألة التي كانت الفرويدية وما بعدها من السبّاقين إلى القول: إن اللاوعي هو المتحكّم بالتاريخ الفردي كما الجماعي... هذا المتحكّم يُسمّيه "كلود- ليفي ستروس" البنية الأسطورية.

(٢) انظر:"ميجان الرويلي": قضايا نقدية ما بعد البنوية، الرياض- ١٩٩٦.

(٣) كمال البكّاري: الاختلاف شرط إمكان كل معنى، نهار الكتب، العدد السابع ١٩٩٧.

(٤) يرى أن الإنسان لا وعي له ولا إرادة ولا حرية، وهو مجرد تمظهر للغة... لذلك توجَّب إعلان موته.

(١) محمد عزيز الحبابي: من الكائن إلى الشخص، مصر، دارالمعارف،١٩٦٢.

(٢) هذا ما ذهبت إليه الخيمياء (هوسرل) وعلم النفس الخيميائي.

(٣) محمد وقيدي: جرأة الموقف الفلسفي، المغرب، أفريقيا الشرق، ١٩٩٩.